

## حبيب زيات

١٨٧١ - ١٩٥٤

بقلم الاب اغناطيوس عبده خليفة اليسوعي

هو ذلك العالم الواسع الاطلاع المولع بالتنقيب والبحث ولم ينشر يوماً مقالاً مبتدلاً بل كان يدأب دأباً ورماً. مخطوطات المهد العباسي الذي كان يُجنه عاه ان يجد فيه المادة التي تشبع روحه المتعطشة الى الحقيقة وعاه ان يستنح الفرصة ليضبط اقوالاً تناقلها مزرخو الادب بدون تحقيق اعتبروها صحيحة. ولم يكن هذا الرجل العلامة يرتضي بان يردّد اقوال الذين سبقوه بل كان يعتبر ان مجال التنقيب ما برح فيجاً وان ثمة حقولاً ، وان نقبوا فيها مرات عديدة، ما زالت تشتمل على امور جمة تقتضي المنقب الحقيقي طوال اناة وصبر وجلد. ولقد عاشت حبيب زيات واطلعت عن كتب على طويته وذلك منذ سنة ١٩٤٦ وتمكنت ان امير في عقله المتعطر الى المعرفة ، في عقله الثاقب ، حب الاستطلاع وتحري الحقيقة التي لم يحترم سراها .

وحبيب زيات كان يضر في قرارة نفسه جناً للناس اما اذا اقتضاه الامر للدفاع عن الحقيقة فلم يكن حبه لهم يثبته عن البرح بها . وانني لا ازال اذكر يومئذ كان يمدّها وما كان يعتريه من مضض اذا كان مضطراً للجبر ببعض الحقائق، فقد كنت احس ان في صدره قوة تدوقه الى التصريح بها وان برحت مؤلف الكتاب . وما قامت شهرته الا على حكمه الصائب وثقافته الواسعة وتضامه من اقوال الادباء القدماء. ممّا كان يحمل الجميع على ان يعلّوا اهمية كبرى على نقده .

والذي ينبغي لنا ان لا ننساه هو ان حبيب زيات قد بدأ حياته في التجارة ولم يستطع ان يتسبها في اوضاع ربنا اقتضته ان يتسامح مع ضميره . ففضل اتخاذ الكتب اصدقاء له والذرائع الى التحدث اليها باطول الاحاديث واشدها جدوى على غرار الجاحظ ، فالكتاب صادق ولا يتنفض ، عند النقد ، انتفاض الانانية الجريئة العنيف ، وبلااستطاعة قلب صفحاته بدون ان يعارضك معارض ،

ولذلك من المستحسن ان تعقد معه اواصر الصداقة . فجال في مدن اوروبا زائراً . مكاتبها مقلباً مخطوطاتها وقاطفاً منها ما يروق ذوقه الصحيح والدروس التي ونف لها حياته فكان ينتقل من باريس الى ليدن الى القاتيكان الى مدريد فالاسكوريال فلندرة الى غيرها من المكاتب الكبرى التي كان ينوي زيارتها للمرة الثانية او الثالثة ثلاثة اشهر قبل موته " . وكان يؤكد لي في تدرين الاول الماضي ان في نيته التنقل في مكاتب باريس وليدن والبريتش موزيوم للوقوف على بعض المصادر لدراسات مقبلة .

ولقد قلت ان حبيب زيات كان يحاول التعمق في تربيخ العهد العباسي وخاصة ان يتلخص الحقيقة فيما يتعلق ببيسيخي الشرق من جميع ما كانت تشتمل عليه تلك المخطوطات من وجهات نظر تستوجب الإلتفات اليها ولم تكنشف بعد . وكانت ادق التفاصيل تحتل مقاما هاما في نظره لان عهداً لا يبعث حياً في احدائه الجسام التي امتاز بها فحسب ، واتما يستنبر غالباً طابعه الخاص من احدائه الصغيرة . ألم يضع احد كبار المؤرخين الفرنسيين ، لوتر (Lenôtre) ، سلسلة كتب عنوان لها بكاملها « التاريخ الضمير في خدمة التاريخ الكبير » . ولئن قلت ان حبيب زيات كان يهتم لكل شاردة وواردة فلا يعني ذلك انه كان يهتم لتفاصيل فقط ويحلها محلاً ممتازاً ويبذل الأجدات العظيمة .

ولا يستطيع من يتصفح « الحزاة الشرقية » الا ان يتحقق غزارة تفاصيله وفكراته الكبرى في شتى مقالاته في هذه المجموعة المشتلة على دراسات عديدة في موضوعات مختلفة .

وكان حبيب زيات يرتاح الى نشر مقالاته في المرسلة ومجلة الشرق الادنى المسيحي ولاسيا مجلة المشرق التي كان يربها ويحب ان يدعوها مجلته ، وكان يحب ان يذهب بمقالاته لمقابلة جميع المنشقرين في انأى اقطار المعمور ليطلهم على شرون مجهولها .

ولئن اطلعنا على مجموعة الحزاة الشرقية وغيرها من كتاباته كخزائن

الكتب في دمشق وصواحيبا ، والعليب في الاسلام ، واديار دمشق وبرها في الاسلام ، والديارات النصرانية في الاسلام ، وسنات النصارى واليهود في الاسلام ، وخبايا الزوايا في ترينغ صيدنايا ، ولماكيون في الاسلام لتولتنا الدهشة من شدة دقة ملاحظته وغرارة علمه ولا سيما دقته الوجدانية اذا ما تعرض للتسبيح في قراءة ما يشك فيها ، فيأخذ بتناقضها ليرفضها او يسلم بصحتها .

•

لقد ذهبت يوماً لأراه في دمشق وانفقت معه على طبع مخطوط كبير الاهمية . فذهبتنا معاً الى المكتبة الظاهرية ومكثنا هناك . اما هو فظنك يعمل واما انا فاخذت اقلب المخطوطة التي استجستنا . بيد ان وفرة الاسناد فيها ، اذا ما طبعت طبعاً حديثاً ، تفضي الى الملل . فلم يرضَ بمجذفه او بقره وطالب بالابقاء . على الاسناد جميعه . واذ عدنا الى داره واستأنفت الحديث معه بالامر ضرب لي مثل احد اصدقائه الذي نشر مخطوطاً وبذل فيه لسوء الحظ كلمة على اعتقاد منه انه احسن في صنعه فما كان منه الا انه تأنيباً مريراً .

وما هاتان الحاديتان الا مثلاً صغيراً من اعماله الكثيرة التي تدل جميعها على صفا . عقله وصدق علمه .

اما التنظيم فقد كان رائده في حياته الشخصية وفي مكتبته اينذ ذلالة صريحة على سيطرته على نفسه سيطرة كاملة وعلى صياغة نظره وبعده في العمل . ولشد ما زرته بتزله في نيس وتحدثنا معاً عن مصنفاته التي كان مزماً ان ينشرها او عن شروح كان له ان يزيدنا في دراسات عديدة . فكان يشجع بكل سهولة نحو ادراج طاولته الناحية بكل ضروب العلوم المقدس بعضها فوق بعض منذ سنين عديدة او الى خزانه كبه ويتناول منها مصنفاً مطبوعاً او مخطوطاً ويفتحه بيد مرنة في الصفحة التي كنا نتحدث عنها .

وما على القارئ الا ان يطلع قليلاً الى خطه المستقيم المنتق والذي ذال كذلك حتى اخر ايامه . وما هي الا بضمة ايام بعد ان غادرت في شهر تشرين الاول الماضي حتى بعث الي برسالة لم يكن خطه فيها يختلف عما كان يكتبه قبل ذلك لسنين عديدة .

ولماذا لا نتحدث عن انشاء حبيب زيات . والانشاء هو صورة عن الانسان . لقد كانت افقه صافية وخالية من الشوايب ، وكلماته منتقاة وعبارته سائلة جزلة واضحة لانه كان متمكناً من مفرداته ليعرب عملاً يريد الاعراب عنه بدون زيادة او نقصان وبدون تشويش وحدائقه .

فن قائل يقول : كل هذا تفاصيل وهدات !... فاكثر الذين يمدون انفسهم سعداً ، اذا تميزوا ببث هذه « الهذات » ليتركوا للاخلق ما يحاكي تلك الاستقامة والدأب في العمل والنظر الثاقب والتعلق بالحقيقة على شاكلته . ان حبيب زيات سيترك بعده الذكرى .

=

لم ينب عن نظر ذلك الرجل الذي سبغ غور العهد الذي درسه والبحرث التي دأب في متابعتها الامر الجوهري لانه لم يتفق الي قط ان صحته مرة الا وحدثني عن القضية الدينية . ولقد احببت فيه تعلقه بالنوي بامنا الكنيسة الكاثوليكية الشاملة المقدسة تعلقاً خالياً من التباهي والتجنع . فجه لها كان حب ابن كريم صادق ويشجيه احياناً بعض الظاهرات الحارمجة لانه الكنيسة بيد ان ذلك الحب كان مطرد النور وحرراً .

وإذا انضجته آلام سنه الاخيرة ادرك حبيب زيات سر هذه الآلام التي تشهد ولادتنا وتصحبنا في شتى تقلبات حياتنا ولا تقيب ابداً عن افرائخنا وشداننا ، فهي تصحبنا بين ذراعي الاب السرمدي لتقدم له وقامنا كعربوز عن تعلقنا به ولتشفع بنا لديه .

وحبيب زيات كان ابناً للكنيسة مطيماً . اما ما استطاع ان يكشفه فيها من ضعف بشري فلم يثمه قط عن التعلق بها وسماعه لها واتحادها كالأبنا . فانها كانت في نظره الام الحنون . وكفى .

وفي شهر تشرين الاول الماضي حدثني عن ذلك والدموع في عينه فانه كان يشمر بدون الاجل ... لا بل كان ، كما قدمنا ، يروم النهاب الى الاسكوريال وكبيريدج وليدن وغيرها من المكاتب ... وما كان يفكر ان المنية ستعاجله ببث تلك السرعة مع انه كان يعرف ان الانسان لا يستطيع البقاء الى الابد على هذه الارض فحظ سيره للملاقاة ربّه الاخيرة الدائمة .

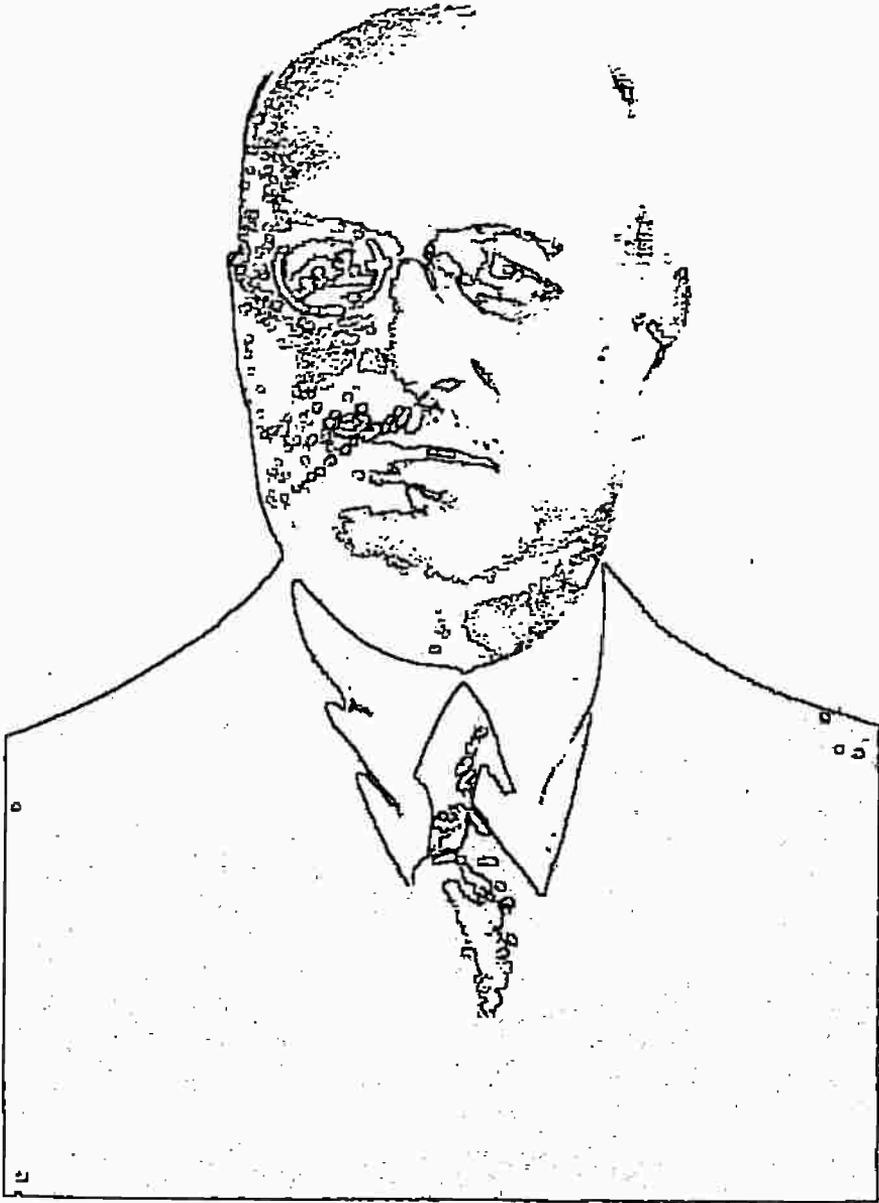
وهكذا كان شاعراً فذكر حبيب ريات أولاً انه ما برح عليه ان ينجز في حياته أعمالاً اخرى وثانياً ان من واجبه ان يستعد استعداداً أكمل لهذا اللقاء الأخير .

•

كان حبيب زيات عاملاً صالحاً في ميدان العلم وعاملاً صادقاً في سبيل الحقيقة التي تقول له بدون ريب : تعال ايها الخادم الأمين فقد اخذت خمس وزيات واشتغلت فربحت خمساً اخر فادخل ملكوت سيدك .

وحبيب زيات سيقى في نظرنا الرجل العالم الذي عرف ان يخدم ربه بوجدان مستقيم والعلم بوجدان لا يقل عن ذلك استقامة واخلاصاً .





حبيب زيات

١٨٧١ - ١٩٥٤

٥٦٨